﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

[المؤمنون: 115]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عدمُ عِلْمِ الكفّارِ بِقِصَرِ الحياةِ حتّى فقدوا الحِكْمَةَ

بعد أن بَيّن تعالى قِصَر مُدّةِ الحياة الدّنيا مقارنةً بالآخرة، وأخبر عن جَهْل هؤلاء المُتكبّرين بهذه الحقيقة حتى حَسِبوا أنّ حياتَهم عبثًا بلا حِكمةٍ ولا مساءلةٍ[1]؛ أكّد تعالى بأنّه إنّما خلق الخَلْقَ لحِكمةٍ وقصدٍ، وأنّهم سيُردّون إلى الله تعالى للمُساءَلة والجزاء[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَبَثًا﴾: أصل كلمة العَبث: الخَلْط[3]؛ وهو القيام بفعل عشوائيٍّ[4] دونَ ضبطٍ[5] ولا قَصْدِ غرضٍ صحيح[6]؛ فهو فعلُ ما لا فائدةَ تُرجَى منه[7]، يقول سبحانه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشّعراء: 128]؛ أيْ: بغير قصدِ غرضٍ صحيح، ومعنى ﴿عَبَثًا﴾ في الآية: بلا قَصْدٍ ولا حِكمة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاغترارُ بالدُّنيا أفْقَدَهمُ المَقصدَ

لقدِ اغتررتُم بالدُّنيا رغمَ أنّ لُبَّكم كان فيها قليلًا، فهل حسبتم أنّنا أوجدناكم في الأرض بلا حِكْمةٍ ولا قَصْدٍ؟! وهل اعتقدتُم أنّكُم إلَيْنا لا تُردّون للمُساءَلة والجزاء؟![8].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 69.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبث).
(4) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (عبث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبث).
(6) الرّاغب، المُفردات: (عبث).
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 269.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 69.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾:

ترتُّب الاستفهام على الاغترار بالمُقام في الأرض رغمَ ضآلتِه

جيء بالفاء في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ وهي مؤخَّرةٌ عن تقديم؛ لأنّ أداةَ الاستفهام لها الصّدارة[1]، وتدلُّ الفاء بهذا على ترتيبِ السّؤال على ما قبلَها، ولولا الفاءُ لَما ظهرت العلاقةُ بين جملة ضآلةِ المُقام في الأرض وبين جملة الاستفهام؛ فهي للعطف على جملةٍ محذوفةٍ تُعتَبر القنطرةُ بينَ الجُملتيْن، وتقديرُها: (أَغَرَّتْكُم الحياةُ الدُّنيا فحَسِبتُم أنّما خلقناكم عبثًا)[2].

بلاغةُ الاستفهامِ في صدرِ الآيةِ:

استفهامُ تقريرٍ وإنكارٍ وتوبيخٍ

ابتدأتِ الآيةُ بالاستفهام: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾، وهو استفهامُ تقريرٍ لما يعتقِدُه هؤلاء المُتكبِّرون، إذِ اتّخذوا عبادَ اللّهِ هُزوًا، ولم يَعتَنوا بالإعداد للآخرة رغمَ قِصَر الدّنيا، فكأنّ فِعالَهم تدلّ على أنّهم يعتقدون ذلك[3]، وهو استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ على هذا الاعتقاد الذي لا يقول به عاقلٌ، بله أن يكون مُبرّرًا بين يدي العذاب[4].

إيثارُ لفظِ (حسب) دون (ظنّ):

الحِسْبانُ موقفٌ دونَ تأمُّلٍ ونظرٍ

آثَرت الآية في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ لفظَ (حسِب) دونَ لفظ (ظنّ)، وذلك لأنّ (حسِب) أقربُ إلى اعتقاد شيءٍ والتزامِه، دونَ أن يكون مَبنيًّا على تأمُّلٍ ونظرٍ، بخلاف (ظنّ) الذي يغلب عليه الاعتبارُ والنَّظر في جوانب المُعْتَقَد[5]، فيُصبحُ الحِسْبانُ أقربَ إلى الوَهم والخطأ[6]، وهو ما يُلْقي اللّائمةَ على هؤلاء؛ فهم لا يعلمون، وبَنَوا حياتَهم على وهْمٍ، وحقًّا إنّه العبثُ أن يعتَقِد المَرء أنّ خَلْقَه كان عبثًا!

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 68.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 133.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(5) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (ظنن).
(6) الرّاغب، المُفردات: (حسب).

غرضُ الحَصْر بـ ﴿أَنَّمَا﴾:

يَحسبون أنّ العبثَ هو المَقْصِد من الخَلْق

في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا﴾ دخلت ﴿أَنَّمَا﴾ فدلّت على الحَصْر[1]، والمعنى: أظننتُم أنّنا ما خلقناكم إلّا لأجل العَبَث؟! فأُفرغ الخَلْق من أيّ حِكمةٍ وقَصْدٍ؛ بل صار القَصْد من الخَلْق هو العَبَثُ، وهو ما يُظْهِر قُبحَ هذا الاعتقادِ السّلبيّ الذي تَمَثَّل في تَصرُّفاهم.

إيثارُ الفعلِ ﴿خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ مادّةً وصيغةً:

الحدوثُ في زمانٍ بمقدارٍ وإتقانِ صُنعٍ يستحيل أن يخلوَ من قَصْدٍ

آثَرَتِ الآيةُ فعلَ الخَلْق في قوله: ﴿خَلَقْنَـٰكُمْ﴾؛ وذلك لدلالة مادَّته وصيغته؛ فأمّا مادّتُه: فالخَلْقُ إيجادٌ وتقديرٌ على غير مثال[2]؛ فتدلّ على الإيجاد كما تدلّ على الموجد وتمام إتقان صُنعِه، وكِلا الجانبيْن يستحيل أن يخلو من قَصْد، وأن يكونا عبثًا فارغًا بلا معنًى؛ بل بالعكس تمامًا، فمَن خَلَق شيئًا حَدَّد له بدايةً ومقصِدًا ونهايةً؛ بل هو أدرى بدواخله وكمالِه ونقصِه، وأيُّ تعامل مع المخلوق بعيدًا عن إرادة خالقه فهو خروج عن المعقول ودخولٌ في العبث، وأمّا عن صيغته: فقد جاء بصيغة الماضي مع أنّ أصلَها المصدرُ المُنسبكُ من (أن) والفعل؛ أيْ: (خلْقَكُم)، فعَدَل إلى الفعل لدِلالته على حدوث الخَلْق، فهو حدثٌ سبقَه العَدَمُ.

إيثارُ لفظِ ﴿عَبَثًا﴾ مادّةً وموقعًا:

حِسْبانُ المُتكبِّرين حَمَلَهم على جَعْل ما لا يصحّ مَقْصِدًا مَقْصِدًا

عبّر القرآنُ بلفظ (العبث) في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾؛ فأمّا مادّة اللّفظ فهو خُلو الفعلِ من قَصْدٍ وفائدةٍ، والفعلُ بلا فائدةٍ لعبٌ[3]، وهو ما قاله سبحانه في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: 16]، والفعل الخالي من القَصْد لغوٌ، وكِلا المَعنيَيْن لا يتّفقان أبدًا مع دلالة الخَلْق، وقد وقع قولُه:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 133، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(2) الرّاغب، المُفردات: (خلق).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عبث).

﴿عَبَثًا﴾ موقع المفعول لأجله؛ وصار العبث مفعولًا للخَلْق، والتّقدير: أفحسبتم أنّ القصد من خلقكم العبث؟! وهو خطابٌ فاضحٌ موبِّخٌ، إذ جمعَ حسبانهم بين ما لا يصحّ جمعُه، وما لا يصِحّ مَقصدًا جعلوه مقصدًا، ومجيء لفظ ﴿عَبَثًا﴾ في هذا الموقع جعل محلَّه الإعرابيّ مُتعدِّدًا، فأُعرِب حالًا بتقدير: أنّا خلقناكم عابثين[1]؛ ولأجل ذلك تنوّع المقصودُ بالحاليّة: فقُصِد الخالق؛ ويكون حالُ الخالق حين خَلْقه لهم عابثًا وحاشاه؛ أيْ: (أفحسبتم أنّا خلقناكم حين خَلقناكم عابثين)، وهو أقربُ إلى إعراب ﴿عَبَثًا﴾ مفعولًا لأجله[2]، بتقدير: (أنّا خلقناكم للعبث)؛ فانتفى أيُّ قصدٍ في الخَلْق، وأيُّ فائدة منه، وأمكن أيضًا أن يكون المقصود بالحاليَّة هو المخلوق، فيكون المعنى: (أفحسبتم أنّا خلقناكم لتعبثوا من غير طلبٍ مطلوبٍ منكم، ولا غاية تتّجهون إليها، لتلهوا أو تلعبوا، ولا محاسب يحاسبكم)[3].

دلالةُ عطف جملة ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾:

يحسَبُ المُتكبّرون أنّهم لا يُحاسَبون كاعتقادهم بخَلْقهم عبثًا

عُطفت جملة ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ على جملة ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ بحرف الواو، ويدلّ العطف هنا على أنّ فعل (حسب) يتعلّق بهذه الجملة أيضًا[4]؛ أيْ: (أفحسبتم أنّكم إلينا لا تُرجعون)، فالآيةُ توبِّخ المُتكبّرين باعتقادهمُ العبثَ في الخَلْق، والعبثَ في المَهمّة، وكذلك الاعتقاد بعدم الرّجوع للمُحاسَبة.

سِرُّ تقديمِ اعتقاد العبثِ على اعتقاد عدمِ الرّجوع:

ترتّبُ إنكارِ الرّجوع على اعتقاد الخَلْق عبثًا

عُطِفَ اعتقادُ عدم الرّجوع على اعتقاد الخَلْق عبثًا في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وقد قُدّمَ حِسْبانُ الخَلْق عبثًا على حِسْبان عدمِ الرّجوع، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 134.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 206.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 206.

التّقديمُ يَشي بالترتُّب؛ لاستلزام الخَلْق عبثًا أنّهم لا يُحاسَبون[1]، فمَنِ اعتقد أنّه بلا مهمّة فإنّه سيُنكر البعث والمحاسبة؛ فصارت الواو في معنى (حتّى)؛ أيْ: (أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثًا إلى غاية أنّكم أنكرتم البعثَ والمحاسبةَ)![2].

فائدةُ التوكيد بـ(أنّ) والجملة الاسميّة:

جاء الإعلامُ بحِسْبانهم عدمَ الرّجوعِ مُؤكَّدًا بـ (أنّ) والجملة الاسميّة، وفائدة ذلك تحقيقُ رجوعِهم إلى ربّهم[3]، إذِ ارتابوا فيه إلى أن أنكروه، فالرّجوع إلى المولى هو أمرٌ حتميٌّ، دلَّت عليه الدّلائل، لكنّهم اعتقدوا بطلانه، لِما راوَدَ عقولَهم من العبث في الخَلْق.

الـرّجـوعُ إلى المولى أمرٌ ثابتٌ مُتحقّق وإنِ ارتابَ المُرْتابون

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيْنَا﴾ على الفعل:

قُدّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيْنَا﴾ على الفعل ﴿تُرْجَعُونَ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾؛ ويَكمُن السِّرّ في ذلك في التَّركيز على الرُّجوع إلى الخالق خاصَّة[4] كما يَحمِل معنى التّهديد[5]؛ فالرّجوع إلى الخالق خاصّة، ومَنِ اعتقد عبثيّة الخَلْق فإنّه سيواجِهُ الخالقَ حينَها، حيثُ لا ينفع عنده شيءٌ.

الـرُّجـوعُ إلى الخالق خاصّة؛ فاحذروا واتركوا العبثَ

إيثارُ الفعلِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

آثَرَت الآيةُ استعمالَ الفعل ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وفي اختيار ذلك أسرارٌ تَرجِع إلى مادّة الفعل وإلى صيغته، أمّا عن مادّته فالرُّجوع يعني الارتدادَ إلى حيثُ المَبْدأ[6]، والمَبْدَأ هنا هو الخالقُ حيثُ لا مثالَ للخَلْقِ سابق؛ فدلّ ذلك على العودةِ وعلى مَن يعودون إليه، وممّا زاد هذا المعنى جلاءً صيغةُ الفعل؛ إذ جاء بصيغة المضارع الدّالَّة

استحضارُ صورةِ المخلوق العابثِ، وهو يعود لزومًا إلى مُبْدِئِه الخالقِ الحكيم

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 219.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 153.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 196.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5127.
(6) الرّاغب، المُفردات: (رجع).

على تصوير مشهد الرّجوع واستحضارِه، فكيف سيكون الرُّجوع حينَها؟ كما يرجعُ العبدُ الآبقُ إلى سيّده يرجعُ المخلوقُ العابثُ إلى خالقه الذي قصد بخَلْقِه مقاصدَ، فضيَّعها هذا المخلوقُ، إضافةً إلى أنّ فعلَ الرّجوع فعلٌ لازمٌ[1]، فكأنّ المخلوقَ العابثَ يرجعُ لُزومًا إلى مَبْدئِه ومنْتَهاهُ.

التّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات في ﴿تُرْجَعُونَ﴾:

الـــرّجـــوعُ إلى الخالق طوعًا أو كَرْهًا

قرأ الجمهور ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالمبني لما لم يُسمَّ فاعلُه، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ العاشر ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بالمبني للمعلوم[2]، ولاختلاف القراءة دلالةٌ رائعةٌ؛ إذ تدلّ قراءة غير الجمهور على أنّ الرّجوع يكون طوعًا باختيار العبد، وهو حالُ عبادِ اللّه يَرجون ربَّهم، وهذه الدّلالة مؤسسة على أنّ الخطاب بهذه الآية لكلّ مَن يتأتَّى منه الخطابُ، وأمّا قراءةُ الجمهور فتَدُلُّ على أنَّ الرُّجوع يكون كَرْهًا كما هو حالُ هؤلاء المُتكبِّرين؛ إذِ الرّجوعُ في أصله أمرٌ مقضيٌّ لا محالةَ، وإن أَبَوا ذلك[3]، كأنّ شيئًا يَسوقكم رغمًا عنهم[4]، وقراءةُ المبني للمعلوم - في نورِ توجيه الخطاب إلى أهل الكفر والنّار خاصَّةً - توجَّه على معنى أنّ رجوعَهم إلى اللّه من مظاهر قَهْره وهيمنته ﷻ؛ إذ هو القاهر فوق عباده؛ فهو الذي يقدر على إماتتهم وعلى بعثهم وحشرهم وحسابهم وعقابهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحِسْبان والظّنّ:

الحِسْبانُ ترجيحٌ مع قِلّة تأمُّلٍ، والـظَّـنُّ ترجيحٌ مع تأمُّلٍ ونَظَرٍ

الحَسْبُ والظَّنُّ مفهومان مُتقاربان يدلُّ كلٌّ واحد منهما على تصوّر شيءٍ وتقديمِه على غيره، ويفترقان في أنّ الظّنَّ ترجيحٌ

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المَصون: 8/ 375.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/209.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 135.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10174.

لغلبة احتمال الصّواب، وغالبًا ما يكون بتفكير وتأمّل[1]، وعليه مدارُ الكثير من جوانب حياة الإنسان، فإن كان خلافَ ما هو أقوى منه وهو الحَقُّ صار مذمومًا، بينما الحِسْبانُ قد يكون وهمًا دونَ اعتماد نظرٍ أو اعتقادٍ[2]، ممّا يجعل الحِسبان أقربَ إلى الخطأ.

الخَلْق والإنشاء:

الخَلْق ابتداءُ شيءٍ وتقديرُه وتصويرُه، والإنشاء خلقُ الأشياءِ ابتداءً وتنميتُها

يُطْلَق الخَلْق على الإنشاء، وبينهما فرقٌ؛ فالخَلْقُ: ابتداءُ شيء وتقديرُه وتصويرُه، بينما الإنشاء: ابتداءُ شيءٍ وتدبيرُه وتتبُّعُه وتنميَتُه؛ لذلك فالإنشاء نوعٌ من أنواع الخَلْق غير أنّه يختصّ بالبدايات والتّنمية[3]، بينما يعمّه الخَلْق مع التّقدير والتّصوير.

العَبَث واللَّعِب:

اللّعب عبثٌ لعدم الجدوى، والعبثُ سفاهةٌ لعدم القصد

إذا كان بينَ العبث واللّعب تداخل؛ فبينَهما فروقاتٌ؛ فإذا كان العبثُ فعلَ ما لا قَصْدَ فيه ولا فائدة ولا منتهى غاية، وكان اللَّعِبُ فعلَ ما لا فائدة تُرجى منه؛ فإنّ اللَّعب نوعٌ خاصٌّ من أنواع العَبث، ويَتَميّز اللّعِبُ بعدم الجدوى[4] مقارنةً بالعبث؛ لعدم القصد، وغالبًا ما يوصَف فِعْلُ الصّبيَة باللّعب؛ لعَدَم تمييزهم بين النّافع وغيره، بينما العبثُ وصفُ مَن يُمَيّز ويَعي، فيكون مَحَلَّ ذَمٍّ؛ لأنّه دليل سفاهةٍ وقِلَّةِ حِكْمَةٍ.

الرُّجوع والرَّدّ:

الرُّجوعُ عودةٌ إلى المَبدأ باختيار، والرَّدّ إجبارٌ على العودة وكَفٌّ عن سبيلٍ

قد يُطلَق الرَّدّ على الرُّجوع، وبينَهما اشتراكٌ وافتراق؛ فالجامع بينهما هو العودةُ، إلّا أنّ الرَّدّ إجبارٌ على العودة وكَفّ عن سبيل[5]، بينما الرُّجوع هو عودةٌ باختيارٍ غالبًا، وتكون إلى المَبدأ والمُنطلَق[6].

(1) الرّاغب، المُفردات: (ظنن).
(2) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(4) الرّاغب، المُفردات: (لعب).
(5) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 175.
(6) الرّاغب، المُفردات: (رجع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»